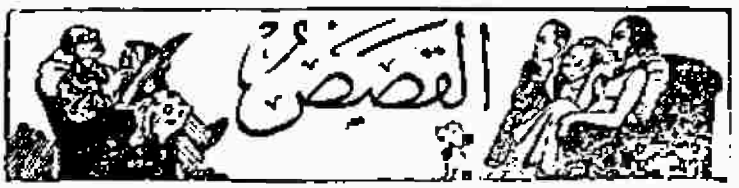

قصة من لبنان :

رفيق عـــلام ...

[مهداة إلى الصديق الأستاذ أنور المعداوي]

للاستاذ سهيل إدريس

كانت تشدني إلى رفيق علام صداقة مخلصة وثقت أواصرها خمسة أعوام تلازمنا فيها تلازم الظل وصاحبه . فلم يكن عجباً أن أدرك من شأن رفيق ، ويدرك هو من شأني ، مثل الذي يتاح للاخ من أخيه . وقد كانت طبيعة عملنا التجاري الواحد ، وتجاورنا في السوق ييسران لنا اللقاء ، كلما وجدنا من وقتنا سانحة . وكنا إلى ذلك نتواعد على قضاء سهراتنا في اللاهي ، فيجد كلانا أن صاحبه أقرب إليه من نفسه .

والحق أن صديقي رفيق كان شاباً وسيماً جذاب الملامح ، ممشوق القامة ، تحسبه إذا ما رأيته من أولئك الذين يختارون اختياراً لتمثيل الأفلام السينمائية ... وكانت اللابس — إذا ما ارتداها — تكتسب أناقة ليست هي من طبعها ، فتجتذب إليه أنظار النساء قبل الرجال .

وكان يسعدني أن يجد رفيق فيّ وأجد فيه مستودعاً ينفض كلانا عنده ذات نفسه ، فكنا نتعاون على شؤوننا ونتبادل المشورة في الشجون ، حتى لم يكن أحدنا يحبس عن صاحبه خبيئة ، وقد أتيح لي بفضل ذلك أن أقف من حياة صديقي على نفسية شاب تعد نموذجاً بشرياً في حياة الناس .

• • •

لقد تابعت عن كثب قصة حبه الأول ، ذلك الحب الذي كانت بطلته فتاة أنسم أني لم أر أجمل منها في النساء اللواتي أعرف وأرى . وقد عاش رفيق هذا الحب بكل ما في أردانه من طاقة الحيوية وبقصارى ما تنطوي عليه جوانحه من رصيد الشباب وحيا الفتوة ؛ ثم تحطمت كأس الحب في يده ذات يوم ، لشدة ما عصرتها أصابعه ، فخرج من ميدان المعركة مثخناً بجراحات دامية ، لا يكاد يملك وعيه من فرط ما كانت تورث في نفسه من آلام . ولما اندملت الجراحات حسب أنه شفي ، وأن بوسعه أن يستأنف طريقه أثبت قدماً ، وآمن غاية .

ولقد سلك هذه الطريق حقاً ، ولكن رأيته يتهاوى على الجانبين ، فأدركت أن آثار الصدمة لا تزال تفقده توازنه .

كنت أعرف الأثر الذي تركه حب « مها » في قلبه وكيانه ونفسه . كنت أعرف عمق هذا الأثر ؛ فلم يكن بدعاً أن يبدو أعمق منه جرح خيانتها إياه ، في أعنف فترة من فترات حبه . وقد بلغ من شدة هذه الصدمة أن رفيق لم يحدثني عن الخيانة إلا مرة واحدة بكلمات قليلة مقتضبة ، كأنما كان يرغب في أن يوفر على نفسه العذاب الشديد الذي تبعثه ذكراها ...

ومنذ ذلك اليوم ، تبدى لي صديقي كالشبح التائه الحائر ، يسير دون أن يعين مقصداً ومن غير أن يستشرف محجة . كان كهؤلاء الذين كتب عليهم أن يقضوا حياتهم هائمين سادرين ، في طريق ضالة ، يتناولون الأحداث كما تأتي ، ولا يفكرون بغير اللحظة التي يحيون .

على أن شيئاً من ذلك لم يكن ليبدو في ظاهر الحياة التي يسوقها صديقي ... بل لقد كانت آثار السعادة وآيات الرضى والمرح بادية على وجهه ، حتى تحسبه قد طرح عنه هموم الدنيا وتدرع باللامبالاة واتخذ من الحياة كلها أداة لهو وسخرية ... أفيكون هذا رد فعل عنيفاً للصدمة النفسية التي حطمت أعصابه وأوهنت قواه ؟

ولعل أعجب ما في أمره أن سعادته تلك كانت تتجلى أكثر ما تتجلى إزاء مبعث شقائه التائص ومصدر آلامه المكنون .. إزاء المرأة نفسها ... سعادة ترتسم بسمة على ثغره لا تغيض ، ومرحاً في عطفه لا ينفد .

وكنت كلما لقيته أستمع إليه يحدثني عن مغامراته فيصدق الحديث ، فلا أعجب من أن تقبل عليه الفتيات كلفات بحبه

شديدات الإعجاب بشبابه ، وكان هذا يتيح له أن يحظى من المرأة بما تمتنع عن بذله غالب الأحيان .

وقد كنت موقناً أن صديقي يطلب في المرأة أول ما يطلب الجمال الفاره ، والفتنة الطاغية ، وكان سرعان ما ينصرف عن الفتاة التي لم يجد عليها القدر محظ بالغ من الجاذبية والحسن . وقد عرفني ذات مساء بفتاة في متجره ظلت صورتها مطبوعة في عيني طوال تلك الليلة ، ولم أستطع أن أخمن شعور الحسد الذي داخلني منه ! كانت « حميرة » — وهذا هو اسمها — ذات عينين تنفثان السحر ، وملامح تعجز يد الفنان النابغ عن أن تخط مثلها في الدقة والانسجام ، وقامة نحتت في قالب صناع .

وأقبلت على رفيق في اليوم التالي أسائله ؟

— إنها لجديرة بك حقاً ... فما تنوي أن تفعل ؟

فانتفض يقول : — أتزوجها ؟ أهذا ما تعنيه ؟

فأومأت برأسي إيجاباً ، فإذا هو يصمت لحظات ، ويرنو إلى بعيد فلا أرى في عينيه غير الشرود . إنه لم يفكر في هذا من قبل ، وها هو ذا غير مطمئن ولا مستقر ، كأنما كانت تخيفه فكرة الزواج .

وكان هذا شأنه أيضاً يوم سألته لماذا لا يخطب ابنة عمه التي كانت تهوى إليه بكل ما في كيانها من حب ، وكانت تنعم بحظ وافر من الجمال والأناقة والثقافة . . وقد حدثني هو نفسه عنها ، ولم يخف علي أنه معجب بها ، وأنه سعيد في أن يشعر نحوها بالحب ، ولكني إذ جابهته بفكرة الزواج ، ألفيته يعود إلى حيرته وتردده ، كأنما لم يكن له الخيار في أمره ...

على أن صديقي أخفى عني أمراً واحداً ، هو أنه كان على علاقة بفتاة ثالثة لم يحدثني عنها لحظة ، وقد رأيته في صحبتها غير مرة في معلم أو ملهى ... وفاجأته ذات مساء بذكرها فساء الارتباك ، ثم أخذ يضحك قائلا :

— لم أحدثك عنها خجلا منك .. إنني أبالغ حقاً في علاقاتي مع النساء !

— فبادلته ضحكته ، ولكني لم أجرؤ على مصارحته بأني بت أخشى عليه كل الخشية ، وإني أود لو يقر في حياته على قرار ... هكذا كان رفيق . تحسبه إذا رأيته سعيداً مرحاً راضياً ، فإذا أحببت أن تكشف عن دخيلته ، ألفيت فكره وحسه غارقين في أمواج متلاطمة من الحيرة والشك والاضطراب .

لقد كنت أقرأ في عينيه أنه شق في أعماقه ، وأنه لا يدري هو نفسه ما الذي يريد . وكان هذا الاضطراب مسطراً في نظراته الشاردة التي لا تستقر على معنى ... بل كنت الاحظ أنه كان يحاول جاهداً أن يتفادى النظر في عيني والتحديق بهما ، كأنما كان يخشى أن أشرف من عينيه على عالمه النفسي المتهاوت ...

ولم أجد آخر الأمر مناصاً من أن أجابهه برأيي الصريح ، فانتهزت فرصة أدركت أنه كان متهيئاً فيها للبوح والبث ، وسألته بلهجة لا تخلو من تعنيف :

— إلام تنتظر يا رفيق ؟ ألست واعياً في أن تستقر بحياتك على قاعدة ؟ إنك الآن في فجر شبابك ، وإن بيدك المال وافراً ، فلماذا لا تتزوج إحدى فتياتك الثلاث ، وكلهن رائعات الحسن ، فتحظى بالطمأنينة التي تفتقر إليها ؟

وحاول أن يضحك وأن يعمد إلى المزاح ، ولكنه سرعان ما انقبضت أسارير وجهه ونظر إلي بإحداد ، ثم قال بعصبية :

— لا ... لست أطمع في واحدة منهن ... إنهن لسن جميلات ... وأنا لا أحب إحداهن ولست أرغب في الزواج .

وحين حاولت أن أظهر له خطأ نظرته إلى جالهن قاطعني يقول :

لا ... ليست واحدة منهن في مثل جمال « سها » ، ويخيل إلي أني لن ألقى بعد الآن فتاة جميلة مثلها ، وإني سأبقى أبد الدهر أعزب .

كان هذا كل ما نطق به تلك الليلة ، ثم انصرف عني ، على شدة رغبتي في أن أستمع إليه والمس المزيد مما يشجيه ... والحق أن هذه العبارات اليسيرة كانت غامضة لم تحسر لي عن طوايا نفسه . وكل ما خلته ساعتذاك أن امتناعه عن التفكير بالزواج عائد إلى هذا الخوف الغامض الذي تمتلىء به نفسه من الحياة ... ومن المرأة ... ومن الجمال ... ومع ذلك فهو لا يلتمس غير المرأة وغير الجمال ! إنه دون ريب لا يعي هذا الخوف ، ولو كان يعيه لما غرق في هذه الحيرة التي تجعله تائهاً في خضم الحياة ...

* * *

ثم وقع صديقي رفيق ذات يوم فجأة في مرض أقعده زهاء ثلاثة أسابيع في داره . وقد عدته في هذه المدة غير مرة ،

وكان يشكو « الدوسنطريا » ، ولكني أيقنت أن مرضاً نفسياً هو الذي أودى بصحته . وإنه كان يشكو عقدة تؤهن قواه .

وفي تلك الفترة ، عادت جراحات الذكرى تدمي روحه وضميره وترهق أعصابه ، ثم صارحني بعزمه على أن يهجر البلاد ويسافر إلى أوربا . فإذا وجد راحة لنفسه استقر فيها ، وإلا عاد بعد أن يكون قد التمس من العزاء والتفريج قدراً كافياً للانطلاق في طريق جديدة من طرق الحياة .

ولم أجد أنا مبرراً لأن أقنعه بالبقاء ، بل لقد شعرت بأن علي أن أحثه على مغادرة الجو الذي لجع فيه بعاطفته البكر ، فلعله إذ يبتعد عنه يسلو ويتعزى ... ولعله يجد هناك — في أوربا — المرأة الجميلة الرائعة التي تمحو من قلبه ونفسه صورة الفتاة الأولى التي يخيل إليه أنه لن يلقى أجمل منها ...

وكأن هذا العزم أزال طرفاً من الحيرة التي كانت تقلق حياة رفيق ، فإذا البشر يعاوده ، وإذا سيماء المرح تشيع على محياه ، وإذا هو يشفى من نكسته في وقت يسير ، ويأخذ بعد عدته للسفر إلى بلاد الغرب .

ولكنه ما لبث أن فاجأني يوماً بأنه قد عدل عن السفر ، وأنه لا ينوي أن يغادر بيروت . وحين سألته تعليل هذا الانقلاب ، دعاني إلى تناول الغداء معه ذلك اليوم ، ووعدني أن يزيل فضولي إذ أوافيه إلى داره عند الظهيرة . وجعلت أترقب حلول موعد اللقاء ، وهي عجب لا ينقضي ، ورحت أتساءل : لعل رفيق لقي فتاة حظي جمالها من إعجابه بما لم يحظه جمال سابقاتها الثلاث ! أو لعل « مها » نفسها عادت إليه تستغفره ، فصفح منها ، واستسلم لجمالها الطاغي ؟ ...

وظللت في حيرة وتساؤل شديدين حتى بلغت داره عند الظهر فاستقبلني بترحاب لم أعهده منه ، وما عتم أن دلف بي إلى غرفة الطعام ...

وسرعان ما لاحظت أن المائدة كانت قد أعدت لثلاثة أشخاص ، وابتسم رفيق إذ أدرك أني لاحظت ذلك ... ولكنه امتنع عن أن ينعم بحرف .

وإن هي إلا برهة وجيزة حتى قطع صمتنا وقع خطى متجه إلينا ، وقبل أن يتاح لي أن ألتفت إلى مصدر الصوت ، كان رفيق قد نهض مرحباً ...

وحين عدت إلى الجلوس ، بعد أن جلست هي ... كنت ملتاث الحس ، مختلط الذهن ، أكاد لا أميز ما في الأشياء .

لقد كانت هي ... عليا ، خادمة رفيق ...

يا إلهي ... إنها هذه الفتاة التي لم تكن تمتاز بأي حظ من الجمال ... هذه الفتاة التي كانت تخدمه في إبان مرضه ، فلم أكن أوليها نظرة من نظراتي . إنها خادمته ... خادمته ...

وانتزعني هو من وهدة التفكير المضني ، حين سمعته يقول لي :

— إنها عليا ... وقد عرفتها ولا ريب . لقد خطبتها أمس.

وكنت مطرقاً ببصري إلى المائدة لا أرفعه إليه ، حتى رأيت يده تمتد إلى منبسطة تبتغي المصافحة ، وسمعته يسألني :

— ما بالك ... ألا تهنئني يا صلاح ؟

فلم أستطع إلا أن أنظر إليه ...

وسرعان ما أحسست بكفي تمتد إلى كفه ، فتصافحها ، ثم تشد عليها بحرارة ، بينما كنت أتطلع في عينيه .

لأول مرة منذ عرفت رفيق ، قرأت في عينيه الطمأنينة والاستقرار .

(بيروت) سهيل إدريس

عالم الـــذرة

أو

الطاقة الذرية والقنبلة الذرية

تأليف الأستاذ العالم نقولا الحداد

كتاب صدر في وقته ، يشرح لك ما لا بد أن تعرفه عن الذرة ونواتها وفلقها وطاقتها وأثرها في مستقبل العلم ، وعن القنبلة الذرية وتجاربها وانفجارها وأثرها في مستقبل الإنسان .

يطلب من دار الرسالة . ومن المؤلف بشارع البورصة الجديدة رقم ٢ ومن سائر المكاتب الشهيرة وثمنه ٢٠ قرشاً بخلاف أجرة البريد .